

هذا الكتاب

إن الذي لا يستطيع النظر وراءه إلى المكان الذي جاء منه، لن يصل إلى وجهته أبدًا.

خوسيه ريزال

ربما تكون هذه الجملة الباعث وراء هذا الكتاب، الذي لا أحاول فيه أن أتبوأ مقعد الأستاذية وأعطي دروسًا في التاريخ، وإنما أبحث عن إجابات لعلامات استفهام كثيرة، حيرتني حول الماضي وحول الحاضر الذي لا يمكن فهمه إلا بفهم كيفية تكوينه ومعرفة آبائه من سالف الأيام.

و غاية الكتاب هي رصد تطور المجتمع، النخبة والسلطة في مصر المحروسة منذ بداية تاريخها الحديث لأقرب نقطة زمنية يمكن أن ينطبق عليها وصف التاريخية.

وإن كان من يتصدى للكتابة التاريخية عادة ما يكتب ما يريد قراءته، انتصارًا لموقف أيديولوجي أو رؤية شخصية للأحداث والشخصيات، ولا أدعي تحقيق الاستثناء هنا، إلا أنني حاولت التزام الحيادية بقدر الإمكان، فليست غايتي إثبات شيء أو نفي آخر، وإنما كسب المعرفة المؤدية للفهم، فبدأتُ الإعداد لهذا الكتاب بذهن خالٍ من الافتراضات والمواقف المسبقة، محاولاً الاطلاع على أكبر قدر ممكن من المراجع العربية والأجنبية في كل مرحلة تاريخية تناولتها، خاصة تلك المراحل الحساسة التي يكتنفها الغموض وتغطيها الغيوم، والتي زادت كثافتها في أواخر عهد الملكية وما تلاه من أحداث جسام، والتي عادة ما كنت أجد فيها روايات متناقضة بشكل لا يقبل التوفيق بينها، فاضطرت لإغفال أحداث لم أستطع انتقاء الرواية الأقرب للصحة والأكثر تدعيمًا بالأدلة فيها.

وحيث إن هذا الكتاب يغطي مساحة زمنية هائلة مليئة بالأحداث والتطورات، وجدت نفسي مضطراً لأن أختصر قدر الإمكان ليخرج الكتاب بحجم معقول، وقصرت تعليقاتي الشخصية في أدنى حد ممكن، فلا أريد أن أفرض رأبي في موضوع ما خلافي ولا توجيه القارئ لضمه لصقي، وأثق في فطنتك في استخلاص الفوائد والملاحظات التي لم أكتبها وتقييم المواقف والشخصيات وإن لم يكن إصدار الأحكام من أهداف الكتاب إلا أن من حقك إصدارها.

والكتابة التاريخية بشكل عام مرت بمراحل عديدة، بدأت بمرحلة صناعة الأساطير وقصر التاريخ على رواية سير الأبطال باعتبارهم صانعي تاريخ البشرية، وجوهر التاريخ الإنساني وصابغى أحداثه، واستمرت هذه المدرسة للعصور الحديثة، كما ذهب توماس كارلايل الذي كتب في القرن التاسع عشر كتابه الشهير (الأبطال وعبادة البطولة)، ووسع من دائرة البطولة التي كانت محصورة في الأعمال العسكرية والسياسية ليضم إليها الأنبياء والأدباء والشعراء والمفكرين.

وظهرت نظرية تقول إن التاريخ هو مخطط الإرادة الإلهية في الأرض، وهي نظرية مشتركة في الأديان عموماً، وإن كانت تنسب للقديس أوغسطين الذي كتب بها في إطار نظريته الجبرية، التي شاركه فيها ابن خلدون الذي قسم الحضارات لمراحل متتالية مماثلة لحياة الإنسان.

أما هيجل فرأى أن الأبطال يكونون كذلك، لأنهم يلبون حاجة ملحة للمجتمع في عصرهم، فيقومون بتسريع حراك التاريخ في الاتجاه الطبيعي له الذي تريده روح العصر.

واستمرت الرؤية الجبرية للتاريخ من خلال الماركسية، أن مسار التاريخ محدد وتحكمه قوانين منطقية، يمكن بالوقوف عليها فهم التاريخ، واستنباط المستقبل فيما عرف بالتفسير

العلمي للتاريخ الذي لقي رواجًا بعد ظهور نظرية داروين، وإن كان سان سيمون هو أول من قال بأن التاريخ يمكن معرفته معرفة يقينية كغيره من العلوم الطبيعية، من خلال التوصل إلى القوانين الحاكمة له، وأن التاريخ ميدانه الفيزياء الاجتماعية والتي بمعرفة قوانينها يمكن ليس فقط معرفة التاريخ، بل والتنبؤ بالمستقبل، وكان أول من تكلم عن الصراع الطبقي كسبب للحراك التاريخي.

أما المسلمون فقد امتازوا عن سائر الأمم بعلم الإسناد، ويقول سفيان الثوري: (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ)، بمعنى معرفة مواليد ووفيات الرواة وأماكن حيواتهم وتوقيتاتها للوقوف على حقيقة التعاصر بينهم وإمكانية الأخذ عن الشيوخ، فبدأ التاريخ كأداة مرتبطة بالعلوم الشرعية، وكان التأليف في طبقات الرواة مصدرًا هامًا في معرفة الرجال وسيرهم وبعدهما صنف في السيرة النبوية المشرفة، بدأ التصنيف في أخبار الصحابة وتتبع سيرهم ثم من بعدهم من الخلفاء وأخبار الفتوحات والمغازي.. إلخ، ولكن يعتبر ابن خلدون أول من صنف التاريخ كعلم مستقل عن العلوم الشرعية، وليس أداة من أدواتها.

وفي العصر الحديث أضحت الكتابة التاريخية وسيلة لإزكاء المشاعر القومية والوطنية بتسليط الضوء على كفاح الشعوب، وأخيرًا اكتسبت السمات العلمي المحايد حيث أصبحت تقوم على تتبع الأدلة للكشف عن الحقائق التاريخية وتوثيقها بغض النظر عن كهناتها.

وهذا ما حاولت فعله في هذا الكتاب، وإن لم يكن مؤلفًا أكاديميًا في الشكل وطريقة العرض، إلا أنني حاولت إكسابه سمات الكتابة الأكاديمية الأساسية في التزام المصادر الموثوقة، وعدم إغفال الروايات المختلفة في الموضوع، وعدم الانحياز لطرف.

وأخيراً..

يقول العماد الأصفهاني: (إني رأيت أنه ما كتب أحدهم في يومه كتاباً إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد ذاك لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك ذاك لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر).

فأعذر مقدماً عن النقص والخطأ، وإن لم يكن في هذا الكتاب خداع ولا تدليس، (إلا إذا كنت خُدعت فنقلت غير الصحيح بحسن نية) وأتمنى أن تستمتع بقراءته وتستفيد منه، كما استمتعت واستفدت في إعداده من دون أن يصيبك الإرهاق الذي أصابني.